

القلب الغريب

في ليلة عيد

للدكتور زكي مبارك



أخي الأستاذ الزيات

هل تذكر ما حدثني به منذ سنتين ؟ هل تذكر أنك تشبهت مرة أن توجه إلى خطاباً على صفحات البلاغ عنوانه « من غريب إلى غريب » وكنت الغريب في بغداد وكنت الغريب في باريس ؟ ولم تحدثني عما أوحى إليك أن تفكر في إنشاء ذلك الخطاب ، فهل أستطيع أن أرجح أن ذلك كان بعد أن نشرتُ أنا رسالة « من غربة إلى غربة بين القاهرة وباريس » تلك الرسالة التي فضحتُ بها مكتوم صدري ومكنون هواي ؟

على أنني لن أكتب مثل تلك الرسالة مرة ثانية ، فقد انتهى عهد الغربة بالقاهرة ، وقضى الحب أن أشهد كيف تنهمر دموع الملاح يوم رحيل إلى العراق

فإن الإفراط في النظام ينشئ « العقلية المسكينة » ويجني على استقلال الأفراد ، تسهل قيادتهم إلى ما يريد القابضون على أئنة الأمور . ولو تربى الأطفال مستقلين لما استطاع القادة سوقهم إلى المجازر كما تساق الأنعام

أما الأسباب الاقتصادية والسياسية فهي دون ما تقدم في القوة وصعوبة العلاج ، وسنعود إليها وإلى مناقشة آراء الكاتب في غير هذا المقال

على أن الرأي الذي نود أن نختم به مقالنا هذا هو إصرار هكسلي على السخر بكل ما يقال عن الحروب التي تختم الحروب فنتنه أن التاريخ الإنساني ليس « كرة أرضية » يخرج فيها الإنسان إلى اليابان فيلقى نفسه في أقصى المغرب من طريق الشرق البعيد

إنما التاريخ الإنساني خط مستقيم ، فإذا أردت أن تتقدم فيه إلى الغاء الحروب قلن تصل إلى وجهتك بالرجوع إلى الوفاء

عباس محمد الفهد

انتهى عهد الغربة بالقاهرة ، وحل عهد الاغتراب عن القاهرة ، فمن ردتني إليها ليلة أو ليلتين لأقضى حق النجبة ، تحية المغاني الآلهة التي كانت تنشوف إلى العيد ، لتراني مع العيد !
ليتك يا صديقي تعرف نعمة الله عليك في بلدك فيه أهل وأحباب ، ولا أراك الله حسرتي وعدابي وأنا أخرج كأش الغربة في ليلة عيد !

ولكن هل من السياسة أن أعلن غربي في بغداد ، وقد لقيتُ فيها أهلاً بأهل وجيراناً بيجران ؟

إن قيل ذلك فأنا أعلن أنني لا أعاني غربة العقل ، وإنما أعاني غربة القلب

وكيف أعاني غربة العقل ومحاضراتي بشهدها اللثام من عشاق العلم والبيان ، ولا أخطو خطوة إلا وأنا محوط بالمطف والإعجاب ، ولا أدخل نادياً إلا تلقاني أهله وسامروه بالترحيب والتبجيل ؟

ولكن هل يكتفي مثلي بحياة العقل ؟ يا ضيعة العمر إن كُتِب علينا ألا نظفر بنير الثناء من عقلاء الرجال ، وما أصيق الميثاق إن كانت لا تلمع بروقه إلا من صرير القلم وسواد المداد !

إن الحياة العملية ليست إلا خدعة يتلهم بها أرباب القلوب . وهل يخفي عليك ما يعانيه رجل مثلي حين يعود وحيداً إلى منزله بلا أنيس ولا رفيق ؟ هل يميزه حينذاك أن يذكر أنه كان منذ لحظات بماقر الفكر والرأي وهو باقي محاضراته على جمهور من العلماء والأدباء ؟

ليتك تراني وأنا أدخل إلى غرفتي شارد القلب فأزجج الستائر عن النوافذ ثم أطفئ المصباح لأقف وجهاً إلى وجه مع ظلام بغداد ، وراحة الله من ظلام بغداد في لياليها الطوال !

ولكن ما الذي يدعوني إلى معاينة الظلام في بغداد ؟ لا أعرف ، ولكن يُحْيَل إلى أن الظلام يؤنسني بعض الانبساط ، لأنه يوهمني أنني في فترة من الزمن تأنس فيها القلوب بالقلوب ، وتسكن الأرواح إلى الأرواح . وربما كان الظلام في غرفتي فرصة طيبة أتبين فيها بصيص النور في منزل قريب أو بعيد فأتمثل أخيلة النجوى والعتاب ، وأتوهم ضييع المرج في ليالي الوصال

في بغداد ، وإذن فسأعطي غداً درساً في التفسير ، وهو درس متعب لأنه في الكشف ، وفي آية يختلف فيها أهل السنة مع أئمة الاعتزال

وكيف أعدت هذا الدرس ، يارباه ، وأنا أعرف أنها ليلة عيد في مصر الجديدة وفي الزمالك ، ويأويلتاه من لوعة القلب حين أتمثل مصر الجديدة والزمالك ؛ وغضبة الله على من تمرّ بياله خاطرة ملام وأنا أردّد أسماء تلك المغاني ، حرسها الله ، وأدام لأهلها نضرة النعيم

بسم الله الرحمن الرحيم
« يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون »

قال جابر الله الزخري ...

هذه طلقة مدفع !

وقال ابن حجر في الرد عليه ...

وهذه طلقة ثانية !

وكيف نوفق بين القولين ؟

وهذه طلقة ثالثة !

ولكن ما الساعة الآن ؟

الساعة العاشرة ! إذن ليست هذه مدافع السحور ولا مدافع

الرفع ، وإنما هي مدافع العيد

وأطفأت المصباح ، وتلفت إلى النافذة لأرى ظلام بغداد ، وقت : هذه ليلة عيد بالإجماع ، فلأرح نفسي من الكشف ، ولجاجة صاحب الكشف ، ولأقبل على قلبي أتين ما فيه من فطور وندوب

وتذكرت أنني كنت أكتب رسالة وجدانية في كل ليلة عيد ، ثم انقطعت رسائل بعد إزمات أبي رحمه الله ، لأنني أئفقت أن أبكي بعده على غرض مضيق أو هومي مقفود

ثم بدلت في هذه الليلة أن أبي لا يسره في قبره أن تعيش مهجتي بلا لوعة ، ومقلتي بلا دمة ، وكان رحمه الله جذوة

من الوجدان

وعدت إلى الظلام أستلهمه وأستوحيه فلم أجد من

أما بعد فهذا غروب اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان وهذا مكاني على المائدة في المطعم الذي تخبرته بشارع الرشيد ، وهذه أطيان ترد على القلب ، من أحباب القلب ، أطيان من مصر الجديدة والزمالك ، تلك البقاع التي لم تر فيها النجوم قلباً مثل قلبي ، ولم تسدل ستارها على هوى أعنف من هوى ...

وليقبل من شاء ما شاء !

وأسأل جاري على المائدة : هل ثبتت الرؤيا ؟

فيجيب : سنعرف ذلك بعد ساعة أو ساعتين

وأخرج فاتصفح الوجوه في شارع الرشيد بلا نفع ولا غناء ، ثم أميل على الشرطي أسأله :

هل ثبتت الرؤيا ؟

فيجيب : لم تثبت ، ولكن المحسنة تنتظر برقية من النجف فأدبهم : برقية من النجف ؟ وهل يسر من في النجف أن يفطر من في بغداد ؟ إن كان الأمر لعلاء النجف فيضيفون إلى الصوم يومين ، ولولا أن يفزعهم الهلال لآدوا الصوم أسبوعين وأذهب إلى نادى المعارف لأستمر لحظات مع الزملاء من المدرسين فيفرحون ببقائي ويسألون : كيف غبت أمس ؟ فأجيب : غبت أمس لأحضر اليوم . ولكن حدثوني هل عندكم أخبار عن الهلال ؟ فيجيبون : سنعرف ذلك بعد الساعة العاشرة . فأقول : والشمس تغرب في الخامسة ، فهل يمكن أن يكون بين الخامسة والعاشرة مجال لرؤية الهلال ؟

وبعد لحظة تحول إلى مرة الذبايح إلى مصر فأسمع فتاة تباغهم المستمعين فتقول : سادتي وسيداتي ، هذا آخر العهد برمضان ! فأقول : يا إخواني ، يا حضرات الأساتذة ، يا مسلمين يا أولاد الهلال ، هذه في مصر ليلة العيد

فيجيب أحدهم وهو يتسم : علت شيئاً وغابت عنك أشياء . ألم تعلم أننا صمنا يوم الجمعة ، وصام المصريون يوم الخميس ، فهم حتماً يسبقونا إلى العيد ؟

فأقول : من هنا تعلمون أن مصر تقدمت في كل شيء ، فلها السبق في الصوم ولها السبق في العيد . وأنصرف محزون الفؤاد

هذه غرفتي موحشة لا يؤنسني فيها غير أرواح الموتى من المؤلفين ، وسيكون غد يوم عمل ، لأن يوم الوقفة لا عطلة فيه

من إغفاءة الفجر ، وأنضر من بياض الصباح ، في هذه الليلة
تشتاقي أ كباد رفاق علمتها كيف تطيب ليالي الأعياد
ولكن لا بأس ، فسنميش حتى زرد ديون الهوى ، وسيعلم
من أباكهم الفراق أن الدمع لا ينفع ، وسنرجو ألا يسمحوأ
لنا بعد هذه المرة بالتعرف إلى محطة باب الحديبد

أخي الأستاذ الزيات

لا أنتظر منك دمة عند قراءة هذا الخطاب ، ولكن لي إليك
رجاء ، فاحفظ عهد أخيك ولا تنس في شوارع القاهرة إلا مشية
الخاصين ، فليس في تلك المدينة بقعة إلا ولي فيها سبوات ،
وليس فيها شارع ولا مشرب ولا ناد إلا ولي فيه أحباب وخُلان
ولو شئت لكفتكك تبليغ التحية إلى أسياف القلب في مصر
الجديدة ، وفي الزمالك ، ولكن مثلك وأسفاه لا يؤتمن على نقل
التحية إلى أسراب الملاح ، فلتكن (الرسالة) رسولاً إلى من
أذالوا غاليات الدموع يوم رحلى إلى العراق ، والسلام عليهم
وعليك من الغريب الحزين

جاءنا الفصل الثاني من فصول الأستاذ المبارك في (ليلي المريضة بالعراق)
ولكننا قدما عليه هذه الرسالة الطريفة في النشر حتى لا تفوت مناسبها
« الرسالة »

الطرائف الأدبية

مجموعة من الشعر تتألف من قسمين

القسم الأول : ديوان الأفوه الأودى وديوان الشنفرى

وتسع قصائد نادرة

والقسم الثاني يشتمل على : ديوان إبراهيم بن العباس

الصولى والمختار من شعر التنبى والبحترى وأبى تمام للامام

عبد القاهر الجرجاني

صححه وخرجه وضبطه

الأستاذ عبد العزيز المبنى

طبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر في نحو ٣١٠ صفحة

وتمنه خمسة عشر قرشاً عدا أجرة البريد

وبطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر بدارها رقم ٩

بشارع الكرداسى بمايدين بمصر والمكاتب الشهيرة

أحاوره غير الرجل الحزين الذى اسمه أحمد ، أحمد حسن الزيات
صديق ١

هل تذكر فكاهتك الطريفة إذ تحدث إخوانك أنك
عرفتني أول مرة عن طريق البوليس ؟ هل تذكر أن البوليس
دعاك مرة إلى زيارة المحافظ فتوجست خيفة ، ثم رأيت أن الخطب
هين لأنك دُعيت لتسلم رسالة من الشيخ زكى مبارك الذى
اعتقلته السلطة العسكرية أيام الثورة المصرية ؟

ألا فلتعلم أن الحظ قضى عليك ألا تتاق منى رسالة إلا
في ظروف تحيط بها شبهات ، فإن كانت الرسالة الأولى في عهد
ثورة فهذه أيضاً في عهد ثورة ، وربما كانت هذه أعنف وأفظع
لأنها تحدثك عن صديق حزين يناضل الأرق والسهاد في ليلة عيد
صديق ١

لا تعجب من رجل يضنيه الحزن والابتئاس مع أنه ينهض
بأثقل الأعباء ، فدنيا القلب غير دنيا العقل ، والشواغل الجسام
لا تلغى الرجل عما يساوره من لواذع الإحساس ، وأنا رجل
يؤمن بأن القلب أدق ميزاناً من العقل ، وكيف لا يكون كذلك
وهو يأخذ هدايته من الفطرة ، على حين لا يهتدى العقل إلا
بالبراهين ، وهى في الأغلب تقوم على مقدمات لا تخلو من تضليل
صديق

هذه الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، وستقرأ هذه الرسالة
فتذكر أنك أرتت في ليلة العيد بلا سبب معروف ، فلتفهم حين
تقرأ هذه الرسالة أن ذلك الأرق إنما كان هدية أرسلها إليك
الغريب في بغداد ، الغريب الذى يوحى الحزن إلى أشقياء الغرباء
والآن أظني المصباح لأعاني الظلام في المدينة السحرية التى
شقى بلباليها ملايين الرجال فلا أرى غير بصيص ضئيل لمصباح
أقامته الحكومة على شاطئ دجلة ، فأفهم أننى أخطب الأموات
لأن مصاييح الحكومة لا تدل على شيء ، ولا يهتدى بها غير
لصوص الجيوب

الآن تهدأ بغداد بعد أن تسدل أستارها على النافين من
السعداء والبائسين ، ويبقى السهد الغريب الذى لا يعرف ربيع
القلب ، ولا نعيم الجفون
في هذه الليلة تهدأ جنوب ، وتقلق جنوب ، وجنبي هو
الجنب الحائر تحت سماء بغداد
في هذه الليلة تلتفت عيون فلا ترائى ، عيون كنت لها أمتع